المحاضرة الرابعة

٥-كتب الحماسة:

تشكل دواوين الحماسة رافدا من روافد الشعر التي يستطيع من خلالها الباحثون الوقوف على أغراض الشعر واتجاهاته ومعرفة الجوانب التي عالجها الشعراء وخاصة الذين ضاعت دواوينهم أو عرفوا بالمقلين أو المغمورين لأن هذه المجاميع قد ضمت قصائدهم ومن هذه الحماسات:

حماسة أبي تمام: إذ تعد من أكثر الحماسات قيمة وأغزرها شعرا وأحسنها توفيقا في الاختيار وأقدمها أصولا، وقد سمي الكتاب بالحماسة وهو اسم أول أبواب الكتاب وأعظمها، وقد حاول أبو تمام أن يستخدم ذوقه الفني في الاختيار وفق ما يرتضيه حسه الشعري، وقد عني عناية خاصة بشعراء طي فكان قسطهم في الاختيار وافرا، وقد أخذ على أبي تمام أنه كان يغير النصوص ليستقيم له الربط في الأبيات، ويبدل بعض المعاني بما يعتريها من خلل، وقد أكد المرزوقي هذه الحقيقة أثناء شرحه لديوان الحماسة.

وقد استطاع هذا الكتاب أن يأخذ مكانته في نفوس القدماء والمحدثين فانتزع إعجابهم ووقع عليه إجماعهم سبب الاختيار الموفق الذي عمد فيه إلى الأشعار التي يحتج بها في اللغات والعربية والمعاني، وقد دعت هذه الدوافع الشراح واللغويين أن يعنوا عناية صادقة وأن يتصدى لها جمهرة منهم بالتفسير والتوضيح والإعراب وهم أكثر من عشرين شارحا لها، ولكن الذي طبع من هذه الشروح شرحان للمرزوقي المتوفى سنة ٤٢١هـ والتبريزي المتوفى سنة ٥٠٢هـ ويعد شرح المرزوقي من أكبر الشروحات التي وصلت إلينا، وأكثرها عناية بمعاني الشعر والنقد والموازنة.

ويمتاز بمقدمته النفسية الجريئة التي تعد وثيقة مهمة في تاريخ النقد الأدبي وقد طبع هذا الشرح سنة ١٩٥١ بتحقيق أحمد أمين وعبد السلام هارون، أما شرح التبريزي فقد نشر عدة نشرات أخرها بتحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، وقد بني اختيارها من الشعر على أبواب المعاني فباب لشعر الحماسة وهو أول الأبواب وأكبرها وبه سمي الكتاب وباب للمراثي وباب للأدب وباب للنسيب وباب للهجاء وباب الأضياف والمديح وباب الصفات وباب السير والنعاس وباب الملح وباب مذمة النساء.

حماسة البحتري: وتابع البحتري أبا تمام في التأليف فوضع كتابا في الحماسة وهو مجموعة مقطعات قصيرة موزعة على مائة وأربعة وسبعين بابا، وأكثر أبوابها في نزعات خلقية ولم يعن القدماء بشرحها ولعل دراسة الجوانب التي وقف عليها البحتري تمثل التوجه

النفسي الذي كان يعتريه وهو ينتقي مقطعاتها ويختار أبياتها إلى جانب تأكيده واهتمامه بشاعرين عرفا بالزهد واشتهرا بالحكمة هما صالح بن عبد القدوس ويحيى بن زياد الحارثي، وأن هذه الحماسة ما تزال مجالا للبحث والدراسة لأنها تعكس اتجاها جديدا في التأليف ونموذجا من نماذج الاهتمام بالجانب الأخلاقي والقيم الأصيلة التي ظلت رمزا من رموز الاستشهاد ومثالا من أمثلة الاقتداء.

الحماسة الشجرية: وصنع هبة الله علي بن الحمزة العلوي المعروف بابن الشجري (ت ٥٤٢هـ) حماسة على غرار ما في حماسة أبي تمام وغيرها من الحماسات وقسمها على تسعة ابواب هي: باب الشدة والشجاعة واللوم والعتاب والمراثي والمديح والهجاء والأدب والنسيب، وأدخل فيه ما قيل في الارتياح عند هبوب الرياح والاشتياق عند لمعان البروقوفي النزاع عند نوح الحمام.وأدخل في باب التشبيهات صفات النساء والنار والتنائف والوحش والليل والرياض والسحاب وغيرها وأخيرا باب الملح.

وقد جمع فيه لثلاثمائة وخمسة وستين شاعرا عدا من لم يذكر اسمه ، وقد أكد كثير من الباحثين القدامى أن ابن الشجري ضاهى بكتابه حماسه أبي تمام ويمثل الكتاب حلقة الوصل في السلسلة الطويلة من كتب الاختيارات الشعرية وقد طبعت الحماسة الشجرية طبعة حديثة بتحقيق عبد المعين الملوحي وأسماء الحمصي وصدرت ضمن منشورات وزارة الثقافة في دمشق عام ١٩٧٠.

الحماسة البصرية: وتأتي هذه الحماسة التي جمعها صدر الدين بن أبي الفرج بن الحسين البصري(ت٦٥٩هـ) ضمن الحماسات الكبيرة التي اعتمدها القدامى واستفاد منها العلماء وراجعها نخبة من المتقدمين وانتفع منها كثير من المحققين في تخريج الأشعار والوقوف على اختلاف الروايات ، ويبدو أن المؤلف قد أفاد من كتاب الأشباه والنظائر للخالدين وكتاب الحيوان للجاحظ ومجموعة المعاني وحماسة البحتري وحماسة ابن الشجري وغيرها من المصنفات، ومن غريب الصدف أن يظل صاحب هذه الحماسة غير معروف بين رجال عصره على الرغم من ملازمته للملك صلاح الدين أبي المظفر وإهدائه الكتاب إليه ، وتقع الحماسة في أربعة عشر بابا وهي تساير حماسة أبي تمام في أحد عشر بابا ويزيد عليها بثلاثة أبواب هي ما جاء في الأكاذيب والخرافات وما جاء في ملح الترقيص وباب الإنابة والزهد، ونشرت الحماسة محققة بإعتناء الدكتور مختار الدين أحمد سنة١٩٦٤ وطبعت بمطبعة مجلس المعارف العثمانية، وهناك حماسات أخرى نشر بعضها وما يزال بعضها بانتظار من ينشرهوأنها تضم مجاميع ومقطعات شعرية مهمة.

٦-جمهرة أشعار العرب:

من المصادر الرئيسة في دراسة الأدب العربي في العصر الجاهلي والإسلامي إلى جانب المصادر الأخرى كتاب جمهرة أشعار العرب لأبي زيد القرشي، لأنه يشكل مجموعة متناسقة من حيث التبويب ومتفقة من حيث الأعداد ومتآلفة من حيث التوافق في المعنى والغرض والدلالة وعلى الرغم من أهمية الكتاب واعتماده مصدرا من مصادر الدراسة وانفراده في بعض القصائد الكاملة إلا أن صاحبه ظل مجهولا على الباحثين وظلت أخباره غير واضحة ومعالم عصره غير معروفة مما دفع الكثير من الباحثين إلى الاختلاف تحديد فترته ومعرفة عصره.

إن هذا الاضطراب والاختلاف قد حملنا على أن نحاول محاولة الباحثين الآخرين في هذا المجال من أجل الوقوف على الفترة الزمنية التي عاشها لنستطيع أن نصل إلى الزمن التقريبي الذي ألف فيه الكتاب وأن هذه المعرفة لم تجد طريقها من خلال اسم المؤلف أو تحقيق كنيته أو العثور إلى ما يشير إلى الاسم الكامل له وربما حالت هذه المسائل دون الوقوف على ما يكشف عن هذا الرجل بعد مراجعة كتب التراجم والأخبار والأحداث والتاريخ والسير وغيرها مما يمكن أن يدخل في إطار الوقوف على حقيقة اسمه ومن هنا كانت المحاولة تتجه إلى دراسة الكتاب وطبيعة تأليفه ونهج الباحث لتحدد على الأقل المرحلة التي يمكن أن يؤلف بها مثل هذا الكتاب.

والكتاب يمثل مرحلة متطورة من التأليف بسبب تنسيقه وأعداد قصائده وتبويبه واختيار أبوابه وتسميتها،والمعروف أن كتاب الطبقات لابن سلام يمثل محاولة جديدة في التأليف وطورا نقديا متقدما في الترتيب والتنسيق ويمكن اعتباره نموذجا في باب التصنيف ويدخل في هذا الإطار أيضا حماسة أبي تمام.

إن هذا التصنيف قد عرف واشتهر في القرن الثالث الهجري وفي ضوء هذه الحقيقة نجد أن كتاب الجمهرة يمثل نضجا أعلى من حيث التبويب والتنسيق للحدود التي وضعها والأعداد التي حددها والأسماء التي وضعها على رأس كل مجموعة وهذا يدفعنا إلى الاعتقاد بأن الكتاب ألف بعد هذه المرحلة ويؤيد هذا الرأي ظهور كتب الجمهرة في القرن الرابع الهجري منذ أن ظهر كتاب جمهرة اللغة لابن دريد وجمهرة الأمثال للعسكري وجمهرة الأنساب لابن حزم وتدخل جمهرة الأشعار في هذا الباب ويمكن موازنة مقدمة الجمهرة

بمقدمات ابن سلام وابن قتيبة من حيث المقاييس النقدية والضوابط إلا أنه حاول أن يدخل عنصر الغيبيات في بعض أقواله مما جعلها صورة مغايرة للصورة المألوفة.

إن هذه المسائل إلى جانب الإشارة التي أوردها ابن رشيق (ت ٤٦٣هـ) في كتاب العمدة وإشارة الفارابي في ديوان الأدب (ت٤٠٠هـ) إلى اسم هذا المؤلف تدل على أن المؤلف عاش في حدود هذه الفترة الممتدة بين نهاية القرن الرابع وبداية القرن الخامس الهجري.

ويظل كتاب جمهرة أشعار العرب نموذجا من نماذج التأليف الفني في قصائده وأبوابه واختياراته التي ضمنها أبواب المعلقات والمجمهرات والمنتقيات والمذهبات والمراثي والمشوبات والملحمات فهذه سبعة أبواب في كل باب سبعة شعراء فيكون مجموع الجمهرة تسع وأربعون شاعرا لكل شاعر قصيدة واحدة.

٧-دواوين الشعراء الجاهليين:

إن هذه العناية بالشعر والاهتمام بروايته ظلا متصلين حتى عصر الرواية حيث بدأ الرواة يأخذون على عاتقهم روايته فكان أبو عمرو بن العلاء إمام مدرسة البصرة وحماد الرواية إمام مدرسة الكوفة وبعدهما جاء المفضل وخلف الأحمر ثم الأصمعي وأبو عبيدة وأبو عمرو الشيباني وابن السكيت ومحمد بن حبيب وأبو سعيد السكري، وقد أسهمت هذه المجموعة من الرواة إسهاماً كبيراً في نقل الشعر الجاهلي إلى عصر التدوين، قدمت له من صنيعها ما جعله قادرا على استيعاب الجزء الأكبر من الشعر المعروف في ذلك العصر.

إن نظرة واحدة إلى ديوان شاعر جاهلي واحد تكشف الاهتمام الذي وجدته رواية الشعر عند هؤلاء، فديوان امرئ القيس يروى برواية الأصمعي وأبي عمرو الشيباني وخالد بن كلثوم ومحمد بن حبيب وابن السكيت وأبي سعيد السكري وأبي عباس الأحول ويصنعه أبو الحجاج الأعلم الشنتمري ويشرحه ويصنعه الوزير أبو بكر عاصم بن أيوب البطليوسي.

وديوان زهير بن أبي سلمى جمعه ابن السكيت والطوسي ومحمد بن هبيرة والسكري وأبو بكر محمد بن القاسم الأنباري ويوسف بن سليمان الأعلم الشنتمري.

وأصول ديوان امرئ القيس وزهير وبقية الدواوين قسمان: أصول بصرية وأصول كوفية وإذا أعدنا النظر فيما جمعه العلماء لديوان زهير وجدنا أن رواياته تنحدر عن هذين الأصلين، فأصوله البصرية تنحدر عن رواية أبي عبيدة معمر بن المثنى وأبي سعيد عبد الملك بن

قريب الأصمعي، وتنحدر أصوله الكوفية عن حماد الراوية والمفضل الضبي وأبي عمرو الشيباني، وما نقوله في ديواني امرئ القيس وزهير نقوله في ديوان النابغة والأعشى وطرفة وغيرهم من شعراء الجاهلية الذين وصلت إلينا دواوينهم .

إن اهتمام بعض هؤلاء الرواة لم تقتصر على الدواوين المفردة وإنما تعداهما إلى دواوين القبائل التي جمعت قسما كبيرا منها، فالآمدي (ت ٣٧٠هـ) يذكر ستين ديوانا تبدأ بأشعار الأزد وتنتهي بهذيل ويشكر، ولكنه لم ينسبها على جامع أو صانع، ومن الغريب أن يساهم اكثر من راوية في صنع ديوان واحد لقبيلة، ويذكر ابن النديم(ت٣٨٥هـ) ثمانية وعشرين ديوانا من دواوين القبائل وهي أغلبها منسوبة إلى السكري، ولم يكن السكري وحده قد تحمل هذه المهمة الكبيرة والشاقة وإنما تحمل معه رواة آخرون فكان أبو عبيدة معمر بن المثنى وخالد بن كلثوم ومحمد بن حبيب من المهتمين بهذا الحقل.

إن هذه الصورة الواضحة التي تعكسها الأخبار توضح الجانب الحقيقي للحركة الشعرية العربية عبر مسيرتها من العصر الجاهلي حتى عصر التدوين وتكشف عن الانصراف العلمي الذي أخذ به علماء الأمة أنفسهم في الحفاظ على تراثهم والاهتمام بجمع شتاته ليودعوه أمانة بيد الأجيال التي تهيأت لها أسباب الكتابة فكانت حركة التدوين الكبيرة التي شهدها القرن الثالث الهجري.

وجاء المستشرقون الذين عرفوا قيمة هذه اللغة وأدركوا قدرتها وشق بعضم أساليبها وصيغها وتراكيبها فراحوا ينشرون المخطوط من الدواوين ويجمعون ما تناثر من الأشعار والمجاميع الشعرية، فقد نشروا المفضليات والأصمعيات وأشعار الهذليين ثم الدواوين المفردة ، ولم يكن المستشرقون وحدهم من يقومون بهذه الأعباء وإنما كانت هناك مجاميع أخرى من العرب والمسلمين تساهم مساهمة كبيرة في نشر هذه المجاميع والدواوين.